

العلم

بعض الرسامين يحولون الشمس إلى بقعة صفراء، والبعض الآخر يحول البقعة الصفراء إلى شمس.



Bachkar_mohamed@yahoo.fr

بابلو بيكاسو

السنة: 65 - العدد: 22214 - الثلاثاء 28 من ربيع الأول 1433 الموافق 21 من فبراير 2012 - الأيداع القانوني: 03/1946

أوراق

عبد العزيز بن عبد الله

سار عالم



نجاة المريني



عبد العزيز بن عبد الله

كانت مفاجأة غير سارة عندما علمت بوفاة العلامة الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله يوم الحادي عشر من ربيع الأول 1433 / 4 يبرابر 2012 ، بعد حياة حافلة بالعطاء ، ميسمها البحث والدرس ، والكتابة والتأليف ، والمحاضرات في مختلف الموضوعات العلمية والأدبية والحضارية في جامعات مغربية وعربية وأجنبية ، كان ناسكا في محرابه العلمي ، متواضعا في استقباله لضيوف تعددت اهتماماتهم وتوجهاتهم ، حاضر البديهة كلما فوجئ بسؤال أو استفسار ، وبغيابه فقد المغرب والعالم العربي وجها مضيئا في الساحة الفكرية والعلمية ، ولعل عزاءنا جميعا أسرة وباحثين ما خلفه من مؤلفات ودراسات وأبحاث ومعاجم وغيرها ، نكب عليها للنهل من ينبوعها والاستفادة من موضوعاتها ، فهي صدقة العالم الجارية في كل وقت وحين ، رحمه الله .

رجل مهيب ، مسحة وقار تطبعه ، وهيبة جلال تصحبه ، تشرق أساريره وهو يستقبلك بوداعة ولطف ، ويفيدك بما يكشف لك عمق تجربته في علوم الدين والدنيا ، يجمع بين ذلك بحسن تأليف وبتدبير تقديم ، يبهرك بما حفظته ذاكرته من معارف ، وما وعته مداركه من لطائف ، يستخرج مكنونها بسهولة ويسر ، ويشرح دلالاتها بمنطق وحزم ، فلا تجد غير الإنصات إليه طريقا ، والاستفادة من عطائه سبيلا .

لذا يصعب علي الحديث عن رجل قنوات عطائه أكثر من أن تحصى ، ومسالك مؤلفاته أكبر من أن تعد ، كلما حاولت الإمساك بطرف جرنى الطرف الآخر ، وكلما أمعنت النظر في مؤلف اغواني مؤلف آخر ، فمؤلفاته حديقة غناء ، وارفة الظلال ، بأسقة الأغصان ، ثمارها زاهية الألوان ، متنوعة الأشكال ، فمن الفقه إلى اللغة إلى الأدب ، ومن التاريخ إلى المعاجم ، وسيلته اشرف الآلات وأعلاها رتبة ، قال عنها قديما أبو الفتح البستي :

إذا أقسم الأبطل يوما بسيفهم وعذوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزا ورفعة من الدهر أن الله أقسم بالقلم

منذ شبابه المبكر ، وهو حريص على ما يمجه قلمه من سواد في بياض ، ويعتز بما يحطه من تأليف وكتابات ، فهو سلاحه في كل ميدان معرفي خاض غماره ، في العلوم والحضارة ، في المعاجم والمعلمات ، في المدن والمونوغرافيات ، في الرحلات والسفارات ، في التاريخ والأدب ، في كل ميدان قد يخطر لك على البال مما تعلمه أو لا تعلمه .

وجد في رفقة القلم وهو ينفث سحره ويجلب عطره صاحبا وفيها ، وأنيسا نديا ، ألم يقسم الله بالقلم ليعم العلم والعرفان ، به تتهدب النفوس ، وترقى الأمم ، وفي القسم بالقلم تشريف له وتكريم لحامله . فما أعجب شأنه وما أبعد !

أدرك العلامة الجليل عبد العزيز بن عبد الله منذ بداياته الأولى وهو طالب وخريج جامعة أن الكتابة وسيلة تحرير وأداة تنوير ، فقد عمل بانتظام في جريدة العلم فور صدورها بتحرير موضوعات تخص السياسة والتعليم ، وتبعث على الإيمان بالدور الذي تقوم به الحركة الوطنية من أجل الحرية والاستقلال والحفاظ على اللغة العربية في ظروف استعمارية غاشمة ، ولإتقانه اللغة الفرنسية حرصت جريدة الاستقلال الصادرة بهذه اللغة أن تكون له ربود علمية منصفة لما ورد في كتاب الأستاذ هنري طراس « حول تاريخ المغرب للتفرقة بين العرب والبربر » « فكانت كتاباته مشاركة علمية وسياسية تفيد ما للمغرب من ظهور وبروز حضاريا وفكريا ، جمعها فيما بعد في كتاب عنوانه « التيارات الكبرى للحضارة المغربية » ، قدم له الزعيم علال الفاسي وصدر سنة 1957 بالدار البيضاء .

لم تشغل الأستاذ بن عبد الله المسؤوليات الإدارية ولا المناصب السياسية عن التصنيف والتأليف ، فكانت الكتابة بالنسبة إليه المرفأ الذي ترسو عنده سفينته ، والمحطة التي تستريح عنده ذاكرته ، فقد ألف ما يزيد على الأربعين مؤلفا باللغة العربية وعشر مؤلفات بالفرنسية ، وأزيد من عشرين كتابا جاهزا للطبع ، إنه عالم موسوعي بما تحمله الكلمة من دلالات ، عالم مشارك كما تنص على ذلك التسمية القديمة ، لم تغب عنه شاردة أو واردة كلما تناول موضوعا أو ظاهرة في كتاباته ، إسهاماته العلمية شاهدة على نجاحه في بلورة آرائه ورؤاه سواء تعلق الأمر بتاريخ المغرب وحضارته أو التصوف ومظاهره أو في معلمات توزعت بين معلمة القرآن والحديث أو القبائل والمدن أو الحواضر أو الصحراء أو الطب أو غيرها ، بلغة واضحة وأسلوب ممتع يغريك بالقراءة والتتبع والاستفادة من نتائج الأبحاث التي توصل إليها بعد حفر وتنقيب وتصنيف وتبويب عناية بالمعاجم تدعو إلى وقفات تأملية حول مساره الجاد في العناية باللغة العربية وفي انفتاحه على علوم مختلفة لتأليف معاجم متخصصة تبلغ واحدا وثلاثين معجما منها : معجم العظام ، معجم الدم ، معجم الحرف والمهن ، معجم الملابس ، معجم السماكة والأسماك ، معجم النبات والزهور ، وغيرها .

أما مشاركاته في المؤتمرات العلمية فمتنوعة منها مؤتمرات التعريب في العالم العربي ومنها المؤتمرات الإسلامية بعواصم مختلفة والمؤتمرات الإسلامية المسيحية ومؤتمرات وزراء التربية في الوطن العربي وغيرها ، كما أن له محاضرات بجامعة عربية وغربية حول اللغة العربية ومستقبلها ، وعن العدالة الاجتماعية في ظل الإسلام ، إضافة إلى عضويته في محافل أكاديمية ومجامع لغوية منها أكاديمية المملكة المغربية والمجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية بالقاهرة وعمان والمجمع العلمي الهندي وعضو منظمة حقوق الإنسان العالمية بواشنطن ونائب رئيس البنك العالمي للكلمات التابع لليونسكو إلى غيرها ، أما عمله في الموسوعات ودوائر المعارف فهو مؤسس وأول مدير لمجلة اللسان العربي ، لسان جامعة الدول العربية حول التعريب منذ 1962 إلى سنة 1982 ، وعضو الموسوعة العربية بالقاهرة ولبنان ، وعضو لجنة الإشراف على الموسوعة الكبرى بدمشق وعضو عامل في مجلات ودوريات عربية وأجنبية بأمريكا وأوروبا والصين .

الأستاذ بن عبد الله من الباحثين المناضلين الذين يشغلهم تطور الآداب والفنون ، والفكر والاقتصاد ، و العلوم الشرعية والطبية ، وهو من المناضلين الذين سهروا من خلال محاضراتهم وكتاباتهم باللغتين العربية والفرنسية على خدمة اللغة العربية في أصفى منابها وفي أروع ما ألف بها وفي الحديث عن قدسيتها فهي لغة القرآن الكريم ، مشيرا إلى ما استفادته اللغات الأجنبية من مفرداتها في مختلف العصور ، وتأتي رئاسته أزيد من عشرين سنة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي لتفديد بما للغة العربية من مكانة في فكره وعمله ، فهو « يرى بأن الحفاظ على اللغة العربية وصيانتها يتطلب تعزيز الوحدة الثقافية العربية بتوحيد المناهج الدراسية والكتب المدرسية والمصطلحات العلمية وتبسيط الطباعة العربية والعمل على توسيع المجال الفكري والعاطفي للطفل العربي والعمل على تعليم اللغة العربية للأجانب ، كما أن الارتكاز على اللغة الوطنية كأداة للتعليم الجامعي ضرورة قومية ، كما أن الحفاظ على المستوى العلمي الإنساني يستلزم عدم الارتجال والتسرع » (مقتطف من مقال له عن اللغة العربية وتحديات العصر من موقعه الإلكتروني) .

ويرى الأستاذ بن عبد الله بأن «عمل مكتب تنسيق التعريب هو عمل ثوري ، وثورة هادئة عميقة ومعقولة ، انطلقت من مبدأ ثابت رصين وسلكت سبيلا نيرا ورمت إلى هدف واضح » . يتضح من هذا الكلام بأن المشكل ليس في اللغة العربية ولكن فيمن يريد أن يعنتها بالتحجر ، لذا فإن الإيمان بهذه اللغة والثقة في قدرتها على مواجهة والتحدى ، والعمل بصدق على تحدي العقبات هي الوسائل الكفيلة بالحفاظ على لغتنا العربية وصيانتها من عبث العابثين .

إن اللقاء بالأستاذ بن عبد الله فوز على كل باحث أن يعتز به ، وأن الإنصات إليه وهو الذي يغرف من بحر يذكي في الباحث جدوة الإيمان بالمنابر والاعتقاد ، والحرص على اغتنام كل فرصة تتاح للاستفادة من أمثال هذا العالم .

رحم الله العلامة الجليل الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله وأسكنه فسيح جناته .